

اللغة موضوعا لما قبل علم اللغة؛ دراسة استيعادية لوجهات نظر قبل سوسيرية

Language as a Pre-Linguistics Subject

A Retrospective Study of Pre-Saussurean Perspectives

* فوزي لعبدالة

Labadla Fouzi

جامعة محمد الشريف مساعدي - سوق أهراس (الجزائر)

University of Mohamed Cherif Messaadia Souk Ahras (Algeria)

fouzilab2@gmail.com

تاريخ النشر: 2026/06/02

تاريخ القبول: 2026/04/12

تاريخ الإرسال: 2026/03/15

ملخص البحث

إنها دراسة استيعادية للحظة تشكل الوعي المعرفي باللغة قبيل المرحلة الموسومة بالعلمية في تاريخ الدراسات اللسانية التي اتخذت من دروس دو سوسير نقطة انطلاقها التأسيسية الرمزية. وتروم الدراسة تحليل موقفين اثنين من أبرز العلماء في العصر الحديث، تشارلز داروين وألبرت أينشتاين؛ ذلك لأن اللغة مكون مركزي في الوجود البشري، وملكمة بيانية فارقة على المستويين التواصل والمعرفي، وليس النظر فيها موقوفا على المهتمين بها موضوعا علميا تخصصيا مستقلا، وإنما هي فائدة لكل مختبر لها في كل علم وفن وسيلة يستحيل من دونها تفصيل الفكر وصوغ وجهات النظر. ويعتقد الباحث أن الرؤية العلمية من خارج الاختصاص اللساني ليست أقل قيمة من الرؤية اللسانية، من حيث هي نتاج اختبارات واعية لاستخدام الأدلة الألسنية وغير الألسنية وسيلة بيان معرفية في أكثر الحقول العلمية صرامة ودقة، ومن أكثر العقول تأثيرا في بناء المعرفة العلمية الحديثة. وقد أسفرت الدراسة عن كشف لنواحي تأثر جوهرية للمرجعيات غير اللسانية المعنية بأخرى لسانية، فضلا عن إعادة ترتيب باللغة الأهمية لبعض الأدوار المعرفية، خصوصا ما تعلق منها بمفاهيم سوسيرية مركزية.

الكلمات المفتاحية: اللغة المتفصلة؛ الكائنات اللغوية؛ الاعتبارية؛ النسبية؛ الكون اللفظي؛ الكوانت الأولية.

Abstract :

This is a retrospective study of the moment in which epistemic consciousness in language was formed prior to the phase marked as "scientific" phase in the history of linguistic studies, a phase that took Saussure's Courses in General Linguistics as its symbolic foundational starting point. The study seeks to analyze the positions of two prominent figures in the history of modern science - Charles Darwin and Albert

Einstein- regarding language. This is because language constitutes a central component of human existence, and a distinctive expressive faculty at both the communicative and cognitive levels. Reflection on language is not confined to those who approach it as an autonomous, specialized scientific object; rather, it exerts a compelling attraction on anyone who engages with it, across all sciences and art, as an indispensable medium without which the articulation of ideas and the formulation of perspectives would be impossible. The researcher maintains that scientific perspectives emerging from outside Linguistics are no less important than linguistic ones, insofar as they result from deliberate engagements with both linguistic and non-linguistic signs as a means of cognitive expression within some of the most exacting scientific domains and among the most influential minds in the construction of modern scientific knowledge. The study ultimately reveals fundamental aspects of the ways in which non-linguistic frameworks are, in certain respects, influenced by linguistic ones, while also proposing a highly significant reconfiguration of certain epistemic roles, particularly those related to fundamental Saussurean concepts.

Keywords: articulate language, linguistic entities, arbitrariness, relativity, verbal universe, elementary quanta.



- المقدمة:

قد يبدو غريباً أن يُستهلّ بحثٌ وجهة النظر العلمية الحديثة لموضوع اللغة من مواقف علماء ليست لهم صلة مباشرة بعلم اللغة، فلا هم بنيويون ولا هم توليديون ولا هم علماء لغة على أي حال. ومن هؤلاء عالم الأحياء والتاريخ الطبيعي الأكثر شهرة وجدلاً في العصر الحديث، مروج وجهة النظر التطورية بديلاً لمبدأ الخلق المستقل "شارلز داروين (Charles Robert Darwin) (1809-1882). ومنهم أيضاً عالم الفيزياء الأكثر شهرة وعبقرية بحسب الوصف السائد حتى اليوم، صاحب النظرية النسبية (The theory of relativity) والمعادلة الأكثر تأثيراً في تاريخ الفهم الفيزيائي للكون ($E=mc^2$)؛ ألبرت أينشتاين (Albert Einstein) (1879-1955). ولكن لماذا داروين؟ ولماذا أينشتاين؟ وما علاقة عالمي أحياء وفيزياء بموضوع اللغة؟ وما سرّ هذا الاهتمام بها؟ ولم هي حاضرة أو حاقّة بعلوم غير تلك التي اختصّت بها؟ وما الفائدة من استعادة وجهة النظر القبلية هذه؟

أولا- اللغة عند شارلز داروين، وجهة نظر أحيائية تطورية:

يسود اعتقاد بأن اللغوي الألماني المقارن أوغست شلايشر (August Schleicher) (1821-1868) هو أول من طرق موضوع اللغة بمرجعية مبدئية نظرية داروينية، ولكن الواقع أن داروين نفسه كان قد طرق الموضوع بالتزامن مع عمل شلايشر، وربما متأثرا به، وقد أشار كلاهما إلى صاحبه بإعجاب، وكذلك أشاد داروين بعلماء لغة آخرين معاصرين أفاد من أعمالهم اللغوية لاستكمال بناء تصور التطوري، كهينسليغ ويدجوود وفريدريك فارار. (Darwin, The Descent of Man, 1871, p. 56)

(أ) مبدأ التطور ومرجعياته:

تبنى داروين وجهة نظر أريد بها تحريك المعرفة بالعالم الطبيعي في غير اتجاه الخلق، وفق مبدأ بديل هو التطور (Evolution)، عبر آلية الانتخاب الطبيعي (Natural Selection)، ومن خلال الظهور التدريجي البطيء والمتتالي (The principle of gradual evolution)، ومن ثمة فهو تسأول عن احتمال العثور على إشارة إلى اللغة من وجهة نظر أحيائية مثيرة للجدل¹. كان ذلك في البدء فضولا محضا، لكنه سرعان ما استحال مبحثا مغريا إثر العثور بالفعل على وجهة نظر تطورية صريحة وواضحة في مبحث دارويني عن اللغة ونشوءها وارتقاءها يكاد يكون مفضلا في كتاب "النحدر الإنسان" (The Descent of Man and Selection in Relation to Sex)، متوزعا في أكثر من ثلاث مئة صفحة من صفحاته الأربع مئة وثلاث وعشرين، وقبل ذلك في كتابه الأشهر "أصل الأنواع" (1859) (The Origin of Species).

خلاصة نظر داروين في أصل الأنواع يمكن إجمالها من مقدمة كتابه من قوله: "عند النظر في أصل الأنواع، من المتصور تماما أن يتوصل عالم الطبيعة، الذي يتبصر في الصلات المتبادلة للكائنات العضوية، وعلاقاتها الجينية، وتوزعها الجغرافي، وتعاقد الجيولوجي، وغيرها من الحقائق الماثلة، إلى استنتاج مفاده أن كل نوع لم يتم خلقه بشكل مستقل، لكنه انحد، مثل الأصناف، من أنواع أخرى" (Darwin, The Origin of Species, 1859, p. 3). ومن هنا تتحدد نقطة انعطاف داروين بالفكر الغربي إلى إنكار الخلق المستقل، والاعتقاد بفكرة تطور الأنواع أو انحدارها.

لم يكن داروين أول مبتدع للتطور مبدأ تفسيرا لأشكال الحياة، وبغض النظر عن المعاصرين له ممن أشار هو إليهم كالفرد راسل والاس (Alfred Russel wallace) (1823-1913) الذي توصل من خلال دراسته للتاريخ الطبيعي لأرخيبل الملايو² إلى استنتاجات متوافقة على العموم مع تلك التي توصل إليها داروين بشأن أصل الأنواع (Darwin, The Origin of Species, 1859, p. 2)، فقد أشار داروين إلى بعض العلماء السابقين القائمين بخضوع الأنواع للتغيير، وأولهم وأكثرهم إثارة لاهتمامه عالم الطبيعة الفرنسي جان باتيست دو لامارك (Jean-Baptiste de Lamarck) (1744-1829)، الذي نشر سنة 1809 كتاب "فلسفة علم الحيوان" (Philosophie Zoologique)، متضمنا تفسيره لتطور الشروط الأساسية لوجود الحياة في أبسط التنظيمات والأسباب التي أدت إلى زيادة تكوين التنظيم الحيواني من الأكثر نقصا إلى الأكثر كمالا.

يربط دو لامارك وصول الحيوانات المختلفة إلى حالتها المرئية الزاهنة بسببين اثنين؛ أولهما تغيير الظروف التي تجبر أفراد السلالة الحيوانية على تغيير عاداتها، فتموت الأعضاء بالتدرج أو تنمو وتتطور وتكتسب قوة وأبعادا في تناسب مع قلة الاستخدام أو كثرته. والثاني قوة حركة السوائل في الأجزاء شديدة المرونة، فتؤدي إلى تعديل الأنسجة الخلوية التي تتحرك فيها، وفتح ممرات، وتشكيل قنوات، وأخيرا خلق أعضاء مختلفة تبعا للحالة التنظيمية التي توجد فيها. (Lamarck, 1830, pp. 45-47). أما عن "الشعور" فقد كان لامارك مقتنعا أنها ليست سوى ظاهرة ارتقائية مُنتجة بآلية عضوية، تقتضي أن يكون تركيب الجهاز العصبي جيدا بما يكفي لشعور ظاهرة الذكاء. (Lamarck, 1830, pp. 45-47) ووفق المبادئ التطورية الافتراضية نفسها يستمر لامارك في تفسير نشوء الحياة وتطورها من ملاحظاته للكائنات الحية ومن بينها الإنسان الذي يبدو مميزا ومتفوقا، وسببا في إيقاف تطور بقية الحيوانات. (Lamarck, 1830, pp. 326-332)

تفسيرات لامارك صارت منذ زمن نسخة تطورية عتيقة، وقد حلت محلها تفسيرات داروين للتطور عبر الانتخاب الطبيعي. غير أن المشكلة العامة في وجهة النظر التطورية، الغائية منها كالتي يتبناها لامارك أو العشوائية كالتي يتبناها داروين، هي خلوها من أي تفسير علمي مبدئي حقيقي لكيفية نشوء الكائنات الحية، بل خلوها من أي تفسير ولو بسيط حتى، وتوسلها بدل ذلك تبريرات تراجعية لأشكال الحياة الزاهنة بتعبيرات زائفة محكومة وموجهة بمنطلقات مبدئية تطورية تصف المظاهر الحيوانية المرئية بدلائل؛ أي ألفاظ، مبتورة المراجع؛ كالتطور والتغير والارتقاء والارتقاء. وإن المشكلة في معرفة حقيقة الوجود والموجودات ليست البحث عن تأويلات أو تبريرات لما هو موجود، وإنّما هي المعرفة اليقينية بالعلل الأولى وكيفيات التكوين.

ب) اللغة في المرجعيات التطورية:

تجدر الإشارة إلى أن موضوع اللغة قد طُرق بالفعل من وجهة نظر تطورية صريحة قبيل أو بالتزامن مع المحاولة الأكثر شهرة وتأثيرا للغوي الألماني المقارن أوغست شلايشر (August Schleicher) (1821-1868) في نظريته للتاريخ اللغوي المعروفة بنظرية الشجرة³، تلك التي "تتوافق مع الأفكار السائدة عن التطور في النصف الأول من القرن التاسع عشر بمضمونها الغائي في التقدم نحو غاية الكمال التركيبي" (روبنز، 1997، الصفحات 260-261)، وهي التي سوف يشير إليها داروين بإعجاب في بحثه عن أصل اللغة في كتابه "انحدار الإنسان" من بين أعمال أخرى يراها مثيرة للغاية، للفيلولوجيين البريطانيين هنسليغ ويدجود (Hensleigh Wedgwood) (1803-1891) وفريدريك فازار (Frederic William Farrar) (1831-1903)⁴ على وجه الخصوص، مقتنعا انطلاقا منها ومن غير أن يدع مجالا للشك أن اللغة تدين بأصلها للتقليد والتعديل (The imitation and modification) لمختلف الأصوات الطبيعية والحيوانية والإنسانية الغريزية، بمساعدة الإشارات والإيماءات. (Darwin, The Descent of Man, 1871, p. 56)

1- اللغة بوصفها كائنا حيا:

اللافت للنظر أن شلايشر نشر سنة 1863 بحثا عن "النظرية الداروينية وعلم اللغة" (Die darwinsche Theorie und die Sprachwissenschaft)، معترفا بأن تفسيرات داروين كان لها التأثير الأكبر في بحثه لموضوع اللغة،

مشيرا إلى تعبيره المتزامن مع ظهور الترجمة الألمانية لكتاب "أصل الأنواع" سنة 1860 عن وجهات نظر له في المجال اللغوي عن الصراع لأجل البقاء، واقراض الأشكال القديمة، والانتشار الكبير والتمييز بين الأنواع الفردية، تتفق بشكل مذهل مع وجهات نظر داروين، محيلا إلى كتابه "اللغة الألمانية" (Die Deutsche Sprache) بطبعته الأولى (1860) والثانية (1869)، معتقدا أن الكائنات اللغوية (Sprachlichen Organismen) تخضع لوجهات نظر مماثلة لتلك التي يعبر عنها داروين بشأن الكائنات الحية. (Schleiche., 1873, pp. 4-5). وقد عاين الباحث المصدر المذكور بطبعته، ووقف على آراء شلايشر في مبحث له "عن حياة اللغة" (Vom Leben der Sprache) في تسع وثلاثين صفحة (Schleicher, 1860, pp. 33-71). وهي حسب شلايشر ملاحظة لجميع الألسن التي يمكن تتبعها على مدى فترات طويلة من الزمن، وبالتالي إدراك تغيرها الدائم والمستمر، ومن هذه الألسن إلى جانب الهندية الأوروبية، العربية والعبرية من العائلة التي توصف بالسامية، منطلقا من اعتبار الألسن أعلى الكائنات الحية الطبيعية التي تكونت من مادة صوتية. (Schleicher, 1860, pp. 33-43)

كان هدف شلايشر كما هو مثبت في مقدمة كتابه، تفسير التغيرات اللّهجية في ألمانيا، وفق نظرة أعمق للظروف اللغوية للوطن الألماني تمتد إلى دوائر أوسع. وفي الصفحة المحال إليها حديثاً له عن تغير الألسن واختلافها تبعاً لتغير الظروف الأصلية واضطرابها، لأن الألسن حسبه ليست كالكائنات مرتبطة بموقعها، ولكنها تتغير تبعاً للتغيرات الحاصلة لحاملها بما في ذلك التغيرات المكتوبة. وهي إحدى إجاباته عن السؤال المطروح في بداية مبحثه عن ماهية طبيعة نمو الكائنات اللغوية، وكيفية استمرار حياة اللغة. (Schleicher, 1860, pp. 33-43)

كذلك يعتبر فريدريك فازار من المعتقدين بمبدأ وجود حياة عضوية في اللغة تجعلها تنمو وتتطور باستمرار، مما يجعل احتمال اختزالها في شكل غطي عالمي واحد متناقضا مع مبدأ وجودها ذاته؛ إذ ينفي في فصل له عن "مستقبل اللغة" توفر أي أدلة على وجود لغة بدائية عالمية، مستبعدا انطلاقا من المبدأ نفسه احتمال تطوير لغة عالمية مستقبلية، على الرغم من اعتقاده باندماج اللهجات في الألسن، وضياح الألسن في ألسن أخرى أكثر اتساعا، تماما مثل تدفق الجداول في الأنهار، وتدفق الأنهار في الأبحر، واعتباره تنوع اللهجات من سمات البربرية، والوحدة هي النتيجة الطبيعية للحضارة، واستشرافه السيادة المستقبلية للإنجليزية بناء على مقدمات تبريرية عرقية لاستحقاق الجنس الجرمانى للسلطة؛ تبعا لقدرته على الاستمرار في التوسع والسيطرة على العالم، وإثباته أنه العرق الأقدر على الكمال. (Farrar, 1860, pp. 220-222)

2- مبدأ الحكاية في نشأة اللغة باعتبارها فنا مكتسبا لا ملكة طبيعية:

يعتقد هينسليغ ويدجود أن كلام الإنسان في لسانه الأم ليس مثل شدة الطير غريزة طبيعية مغروسة في تكوين كل فرد من النوع تمارس منذ لحظة الميلاد وتستدعى بشكل عفوي في فترة معينة، وذلك مثبت بانتفاء اجتماع البشرية على الحديث بلسان واحد وطريقة واحدة، وبواقع تنوع الألسن واللهجات البشرية التي تكتسب في مرحلة الطفولة وفق العملية التدريجية نفسها من كلام أولئك الذين يوضع الرضيع في رعايتهم⁵، بحيث لو انقطع بسبب الصمم الطبيعي عن تأثير كلامهم امنتعت إمكانية ابتكاره لغة خاصة به ويكبر أبكيا. (Wedgood, 1866, pp. 2-3)

وبديل ذلك في اعتقاد ويدجود أن اللغة فنّ متوارث كبقية الفنون الميكانيكية، الأمر الذي يستلزم استمرار التوارث بلا انقطاع وبلا نهاية في القدم، أو الانتهاء إلى جيل لم يتعلم لسانه من الآباء. وتقضي الفرضية الثانية حسب ويدجود لزوم معرفة الكيفية التي استطاع بها جيل منشأ اللسان الأصل الحصول على هذا الفن الثمين، وإذا ما كان ينبغي تبعا لذلك افتراض تتمتع والدين الأولين بقدرة طبيعية فائقة على التحدث وفهم لغة محدّدة تمّ نقلها في مسار طبيعي إلى الأحفاد، وتمّ تعديلها بشكل مختلف في خطوط النسب المختلفة عبر عصور لا حصر لها انتشر خلالها الجنس البشري في الأرض في عائلات منفصلة إلى أن تمّ إنتاج اللسان لا يمكن في الوقت الراهن تتبع ما بينها من صلات. (Wedgood, 1866, pp. 2-3). واضعا بذلك تفسير الغريزة والقوى الفائقة موضع سؤال إنكاري، متبنيا نظرية المحاكاة (The imitative origin of language) جوابا بديلا عن سؤال النشأة، مستدلا بالكلمات المستخدمة عن قصد واع لتقليد الصوت مباشرة في كل لهجة، غير أن قوة المحاكاة يتم حجبا تدريجيا من خلال الاستخدام المجازي وفقدان أشكال الانتقال الوسيطة إلى درجة تلاشي المبدأ الأصلي للدلالة في الأذهان (Wedgood, 1866, p. 128). ولا شك في أن المعرفة الأوسع بالأشكال التي مرّت بها اللغة في الماضي من شأنها، حسب ويدجود، توضيح الأصل المحاكى للعديد من الكلمات التي تبدو دلالتها الآن اعتباطية تماما. (Wedgood, 1866, p. 129)

نتقنا العبارة الأخيرة رأسا إلى الأب المؤسس للسانيات الحديثة فيرديناند دو سوسير Ferdinand de Saussure (1857-1913)؛ لتطابقها مع عبارته الواصفة للمبدأ المقابل الذي سوف يتبناه أساسا لوجهة النظر العلمية المستحدثة، بل وفوق ذلك وأكثر منه طرافة أن استخدام دو سوسير للاعتباطية الكلية سوف يصير محل جدل قبل التأكد لاحقا من استعمالها بالفعل في مخطوطاته المكتشفة حديثا للتمييز بين الاعتباطية الكلية أو المطلقة وهي علاقة أساسية في العلامات اللسانية، والاعتباطية الجزئية أو النسبية وهي ناتجة عن العلاقات الترابطية (دويكير، 2015، صفحة 147 وما بعدها)، وأما إثبات سبق استعمال ويدجود لهذه العبارة فيبطل احتمال استحداث دو سوسير لها، ولكنه يظل متبنيا لها ومدافعا عنها، وفوق ذلك يمنعها قوة التأثير المركزية في إمكان تطور الألسن، دون أن يؤول التطور بسبب الاعتباطية إلى الفوضى، إذ هي محدودة بحدود القيم التي تمنحها استخدامات الأفراد المتكلمين، وبالبعد الاجتماعي للسان، وبمنظومته التحوية الضابطة، وهو ما يخفف من وطأتها ويجعلها بدل الإطلاق نسبية. (دويكير، 2015، الصفحات 149-155)

وحسب ويدجود فإن الأدلة الإيجابية على صحة مبدأ المحاكاة الناشئة من الحالات التي يكون من المستحيل فيها مقاومة الدلائل ذات الأصل المحاكى (Onomatopoeia) يتم تجاهلها كما لو أن عدد هذه الحالات كان صغيرا جدا بحيث لا يستحق الاهتمام في مسح شامل للغة (Wedgood, 1866، صفحة 130). إن فكري المحاكاة والاعتباط التام المتعارضين تتقلنا من جديد إلى دو سوسير، الذي سيقتر جازما أن العلامة اللسانية اعتباطية، أي إن الترابط بين مكوناتها الدال والمدلول اعتباطي؛ إذ ليس هناك أي صلة داخلية بين تتابع الأصوات المشكلة للدال والفكرة التي يشير إليها، أما الألفاظ المحاكية فمن الممكن من وجهة نظر دو سوسير الارتكاز عليها لنفي الاعتباطية المطلقة في اختيار الدوال، فاختيار الدال ليس اعتباطيا دائما، ولكن هذه الألفاظ ليست عناصر عضوية في نظام لساني، وعددها أقل بكثير مما يُعتقد. (Saussure, 1971, pp. 101-102).

ضعف تأثير المحاكاة هي الفكرة التي كان قد دحضها ويدجوود من قبل مقدما للظاهرة تفسيريا غير مفتقر أبدا للقوة؛ نافيا قلة الكلمات ذات الأصل المحاكى أو تقييدها في الدلالة على فئة محدودة من الأفكار، وإن ظل العدد الأكبر منها بلا شك غير مفسر؛ لأن الدلالة عرضة للتغير والانحراف عن الشكل الأصلي عند استخدام الكلمات بمعاني ثانوية تجعلها عرضة للفساد وتجذب عنها طابع المحاكاة وتفقد الوعى به تماما (Wedgood, 1866, pp. 130-131). ويقدم ويدجوود أدلة قوية في الواقع لتغير الكلمات بسبب ميل البشر لاستحداث طرق نطق جديدة، ولعزلة القبائل وقلة عدد أفرادها وقلة الأفكار، لأجل ذلك تكون اللغة عرضة للتغير السريع، يصل حد التباس كلام الأجداد عن الألفهام، وتبقى الكتابة الحافظ الوحيد لنسب الأشكال المتغيرة⁶.

يحتاج كل من دو سوسير وويدجوود على صحة مذهبيهما المتقابلين بعدد الكلمات المحاكية؛ إذ يراها دو سوسير، غير قادر على إنكارها، أقل من أن تجعل المحاكاة المبدأ الأساس المنتج للغة، ويرى ويدجوود أن قلة عددها لا يضعف على الإطلاق فعالية هذا المبدأ، ولا يحجب حقيقة أن العدد الأكبر منها قد أفقده التغير الزماني وعي الأذهان باشتغال المحاكاة فيه. (Wedgood, 1866, p. 136)

يجدر التنبيه هنا إلى أن ويدجوود وقد تبني المحاكاة مبدأ لتفسير نشوء اللغة، ينفي الغريزة أو أي تدخل لقوة عليا في هذا النشوء. وهو ما سوف تعيد الاعتبار له لسانيات النصف الثاني من القرن العشرين، ولكن وفق تصور مخالف، وفي صورة أخض هي القدرة الفطرية الأحيائية، وهو مذهب نوام تشومسكي (Noam Chomsky) (1928) الذي اعتبر اللغة ملكة فطرية وفي الدماغ جزء أشبه بالعضو اللغوي مخصص لمعرفتها واستعمالها (شومسكي، 2017، صفحة 26).

لقد تبني داروين مبدأ المحاكاة استنادا إلى أفكار ويدجوود، فرأى إمكانية تتبع أصل الكلمات إلى الوراثة لإدراك أن اللغة ناشئة في الأصل من تقليد الأصوات (Darwin, The Descent of Man, 1871, p. 59). غير أن ويدجوود، وعلى الرغم من نفيه أي تدخل لقوة عليا في ظهور اللغة، لم ينكر الخلق، وكذلك لم يجز داروين على إنكار الخلق بإطلاق، ولكنه سعى إلى إسقاط ما أسماه عقيدة الخلق المنفصل (Dogma of separate creation) (Darwin, The Descent of Man, 1871, p. 153). ولأن مبدأ المحاكاة يقتضي الانتهاء بالبشرية إلى حالة من الخواء الكلامي يصعب تصورها، مما يشكل عقبة خطيرة لا يمكن إنكارها أمام أي حلّ عقلائي للمشكلة، فقد لجأ ويدجوود لأجل حلها إلى إجابة السيد "فازار" بوجوب تشكيل الحكم على الطريقة التي يبدو من المناسب للخالق أن يتعامل بها مع تعليم الإنسان من أدلة الحقيقة، وليس من معيار مشاعر البشر تجاه ما تتطلبه كرامة جنسهم. (Wedgood, 1866, p. 138)، ويختار تبعا لذلك من بين احتمالين تفسيريين تقيضين أن يكون الإنسان قد بدأ من أدنى الدرجات لا العكس، وارتقى في الظروف المواتية من خلال تنمية قواه الطبيعية إلى الحالة المتحضرة، مستدلا بما تم معرفته من تقدم العرق في فنون الحياة، وما أظهره التاريخ مما يقع في متناوله من تطور من البربرية إلى الحضارة. (Wedgood, 1866, pp. 138-139)

وعلى كل حال فإن في وجهة نظر ويدجوود تفصيلات بالغة الأهمية تستحق الفحص تضيق بها حدود هذه الدراسة، إذ ليس الغرض الجوهري منها الإطناب في تفصيلات وجهات نظر ويدجوود وفازار، ولا التحقيق في زعم

توافق وجهتي نظر شلايشير وداروين، وإنما الغرض هو التأمل في وجهة النظر التطورية في نسختها التاروينية كما هي مبسطة في "أصل الأنواع"، و"انحدار الإنسان" (1871 The Descent of Man)، على اعتبار شهرتها وتأثيرها على مسار البحوث العلمية المستقبلية، غير مفصولة عن روافدها المرجعية السابقة والمزامنة، الحاضنة والحاقة.

ج) الأساس العاطفي والأساس العقلي لنشوء اللغة وتطورها عند داروين:

لا يزال مبحث نشوء اللغة في الوقت الراهن كما في زمن ابن جني (392هـ) وبوصف عبارته، موضعا محوجا إلى فضل تأمل، وإن كان أكثر أهل النظر اليوم كذلك اليوم على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح. وليس هذا مقام تفصيل الحديث في وجهات النظر القديمة تلك، وإنما هو موضع للتأمل في وجهة نظر داروينية محدثة مختلفة نسبيا وذات أثر فيما تلاها لا يزال باقيا⁷. وقد سبقت الإشارة في مسألة نشوء اللغة إلى تبني داروين مبدأ المحاكاة كما أثبتته هينسليغ وبيدجوود، وهانها عودة إلى الأسس أو الدوافع الأولى التي ألجأت الإنسان إلى هذا المبدأ لإنشاء اللغة.

يبنى داروين وجهة نظر تربط ظهور اللغة وتطورها بتطور الجهاز الصوتي لغاية تفاضلية جنسية، وزيادة حجم الدماغ لغاية ارتقائية عقلية. فتزعم أن الجهاز الصوتي تطور بالتدرج إلى حد الكمال نتيجة تنافس الذكور لنيل إعجاب الإناث لأجل اختيارهم جنسيا على أساس تفاضلهم في الغناء، وسارت الكفاءة الصوتية الأفضل جنبا إلى جنب مع زيادة في حجم الدماغ أدت إلى اللغة المستخدمة في التفكير العقلي الداخلي. إذ يزعم داروين أن الاستخدام المستمر للصوت قد أدى، من خلال مبدأ الآثار الموروثة للاستخدام (The inherited effects of use)، إلى تقوية وكال الأعضاء الصوتية انعكس على قوة الكلام، وأكثر أهمية من ذلك تأثير الاستخدام المستمر لهذه القوة وترقيتها على تطور الدماغ، من خلال تحفيز العقل وتمكينه من الاستمرار في مسارات طويلة ومعقدة من التفكير ما كان لها أن تستمر دون الاستعانة بالكلمات، أكثر من استمرار الحساب المطول دون استخدام الأرقام والجبر. (Darwin, The Descent of Man, 1871, p. 57)

ارتباط التعبير بالغيتين العاطفية والعقلية وعلاقته بنشوء وتطور اللغة البشرية هي فكرة سيتبناها "ويليم دويت ويتني" (William Dwight Whitney) (1827-1894) الذي سيكون له التأثير الأكبر على التوجه الحديث لفريدرياند دو سوسير، إذ يميز ويتني الإنسان من الحيوان بامتلاكه اللغة عن طريق التعلم، مع اشتراكها في امتلاك القدرة على التعبير الطبيعي، والتي ظلت مصاحبة للغة البشرية اللفظية وداعمة لها خصوصا في مجال الشعور والإقناع، لما تمتلكه من قوة بلاغية تتجاوز الكلام غالبا، وهي لغة عاطفية ذاتية، ولم يثبت حسبه تقديم أي دليل على الإطلاق لإثبات وجود شيء مماثل للتعبير الطبيعي عن التصور الفكري أو الحكم أو الإدراك. فعندما يترك التعبير أساسه العاطفي الطبيعي، ويتحول إلى الاستخدامات الفكرية، يبدأ تاريخ اللغة. (Whitney, 1875, p. 283)

ودونك كلام داروين بخصوص تفرد الإنسان باللغة المتفصلة، مع اشتراكه مع الحيوانات الأدنى في الصرخات التعبيرية بمساعدة الإيماءات وحركات عضلات الوجه للتعبير عن المشاعر الحيوية البسيطة بما يفوق القدرة التعبيرية لأية كلمات. الأمر الذي يقود حسبه إلى استنتاج أن ليست مجرد قوة التعبير هي ما يميز الإنسان عن الحيوان، وإنما هي قوته الكبيرة في ربط أصوات محددة بأفكار محددة، نتاجا لتطور ملكاته العقلية (Darwin, The Descent of Man, 1871, p. 54). وقد أدرك داروين العلاقة الحميمة للغة بالدماغ في حالته التطورية البشرية الحالية من خلال

معاناة تأثير بعض الأمراض الدماغية على الملكة اللغوية بشكل خاص، كما يحدث في الكلام عند فقدان القدرة على تذكر بعض الأسماء⁸، وليس مستبعدا أن يكون داروين قد أفاد من أعمال "بول بروكا" (Paul Broca) في هذا المجال بمثل إفادته المثبتة من ملاحظاته الأنتروبولوجية⁹.

(د) تنوع الألسن وسيادتها وانقراضها نتاجا تطوريا للانتخاب الطبيعي:

يعادل داروين اللغة بالأنواع في الخضوع لنفس الشروط التطورية؛ فتكوين ألسنة مختلفة شبيه بتكوين الأنواع المتميزة، يتم من خلال عملية تطورية تدريجية طويلة، ويرجع انطلاقا منها التشابهات المدهشة بين الألسن إلى الأصل المشترك، أو التماثل في عمليات التكوين، ويؤدي انتشار الألسن واللهجات السائدة على نطاق واسع حسبه إلى الانقراض التدريجي للألسن الأخرى، وليس لسان نفسه أبدا مكانا للولادة، وإن اللغة مثل الأنواع عندما تنقرض مرة واحدة لا تظهر أبدا. (Darwin, The Descent of Man, 1871, pp. 59-61)

ثانيا- اللغة عند أينشتاين، وجهة نظر فيزيائية:

ليس المقصود بوجهة النظر الفيزيائية هنا اتخاذ اللغة موضوعا لعلم الفيزياء، بل معرفة وجهة نظر عالم فيزياء إلى اللغة من حيث هي أداة للعلم؛ أي أداة للتفكير والتعبير عن الفكر. ومن الطريف العثور في سياق البحث عن وجهة النظر الاحتمالية¹⁰ لأشهر عالم فيزياء في العصر الحديث على مقال يحمل عنوانا مثيرا، يضع أينشتاين ليس فقط في مواجهة اللغة، بل في مواجهة علمها أيضا؛ "أينشتاين وعلم اللغة" (Einstein and The Science of Language)، ليكون مؤشرا قويا على تحول الاحتمال حقيقة واقعة. ولا تتوقف الإثارة عند عتبة العنوان بل تنتقل إلى المؤلف؛ إذ ليس هو كاتباً عادياً أو مؤلفاً مغموراً، بل هو شخصية رئيسة فاعلة في لسانيات القرن العشرين، وهو رومان جاكوبسون. وتستمر الإثارة عند تفحص المقال واكتشاف تناوله بالتحليل خطاباً لأينشتاين أذيع في شهر سبتمبر من العام 1941م، في اجتماع "جمعية العلوم البريطانية" (British Science Association: BSA)، يحمل عنوان: "لغة العلم المشتركة" (The Common Language of Science) (Einstein, Ideas and Opinions, 1960, pp. 335-341)؛ لقد ارتفع بالفعل سقف الزهان وصرنا محاطين باللغة وبعلم اللغة من كل جانب، فما علاقة أينشتاين باللغة وبعلمها؟ وما علاقة جاكوبسون بعلم الفيزياء ولغته؟

يتضح من مقال جاكوبسون المؤسس على خطاب أينشتاين وشهاداته الشخصية وكُتب سيرته، أنّ علاقة أينشتاين باللغة تبدو غير عادية؛ أولاً من ناحية اكتسابه لها، ثم من ناحية آلية اشتغاله الفكري بمواضيع الكون الفيزيائي، وأخيراً من ناحية الوعي بها موضوعاً للتأمل، والتواحي الثلاثة هي في الواقع متعلقة. ولكن ما يهتّمنا منها الآن هو موقف أينشتاين من التفكير باللغة، والتفكير بمعزل عنها.

(أ) التفكير باللغة، تطور اللغة من الارتباط الحسي إلى التفكير التجريدي:

لم يكن أينشتاين معاصراً لداروين، فقد ولد لثلاث سنوات بقاء عن وفاته، لكن اتصالحا في موضوع اللغة قوي على مستوى التأمل، إذ يبدو أينشتاين متبنياً منظورا تطوريا حين يميز بين مرحلتين رئيسيتين لنشوء اللغة؛ مرحلة التواصل البدائي المشترك بين المجتمعات الحيوانية بما في ذلك المجتمع البشري، يتم فيها ربط الإشارات الصوتية بالانطباعات الحسية، ومرحلة متقدمة من ظهور اللغة في شكلها التطوري الأعلى؛ أي الشكل التحويلي أو القواعدي؛

ويتم بتأسيس العلاقات بين العلامات بواسطة علامات جديدة يتم استحداثها للتمكن من التعبير عن السلاسل المعقدة نسبيا من الانطباعات، وعلى هذا الأساس، مع وجوب تطابق الإشارات والانطباعات، تحقق اللغة وظيفة الفهم. في مرحلة مبكرة قد تتوافق الكلمات مباشرة مع الانطباعات، وفي مرحلة لاحقة، يتم فقد هذا الارتباط المباشر بقدر قيام بعض الكلمات بنقل العلاقات إلى مستوى التصورات، وهو ما يمنح اللغة استقلالاً نسبياً عن خلفية الانطباعات، فيكسبها تماسكاً داخلياً أكبر، فقط في هذا التطور الإضافي حيث يتم الاستخدام المتكرر للمفاهيم المجردة، تصبح اللغة أداة للتفكير (Einstein, Ideas and Opinions, 1960, pp. 335-341).

من اللافت للنظر حدوث توافق مبدئي شبه كامل لوجهة نظر أينشتاين مع وجهة النظر الداروينية إلى حد يفقد القارئ الوعي بالمرجع الزاهن لصالح المرجع التطوري الأشهر الأسبق؛ ذلك لأننا أمام موقف دارويني تطوري من موضوع اللغة ينبتأه أينشتاين بكل وضوح، خلاصته أن "اللغة القواعدية" التجريدية هي النتيجة التطورية العليا للشكل التواصل الحيواني الأدنى.

ب) التفكير المستقل عن اللغة:

ارتباط الفكر واللغة أو انفصالها قضية جدلية غير محسومة على كل حال، وإذا كانت اللغة هي على العموم الأداة الأساسية للتفكير، فإن الأمر مختلف بالنسبة لأينشتاين في اشتغاله الفكري بالكون الفيزيائي، إذ تبدو حالته مثالا حياً لانفصال الفكر عن اللغة، وبحسب تصريحه فإن الطابع الأعمق للعملية الفكرية الإبداعية عنده خال من الكلمات (Jakobson, Selected writings, 1985, p. 255). فهل يمكن أن تغيب اللغة بالفعل من حوار العقل وتفقد كل دور لها في عملية التفكير؟

إنها علاقة فريدة باللغة وآلية غريبة في التفكير بوصف جاكوبسون الذي يجد تفسيراً لها في التطور غير المتكافئ للمكتبي والعقل واللغة؛ إذ إن بقاء التطور اللغوي لأينشتاين في مقابل تطوره العقلي قد انعكس على طريقتيه في التفكير، وإن تطوره فكره أعاق ترسيخ لغته¹¹. وهو تطور درامي بوصف أينشتاين نفسه بلغ ذروته في نظرية النسبية مؤكداً أن أفكاره حول هذا الموضوع لم تظهر في أية صياغة لفظية، وأنه نادراً ما كان يفكر بالكلمات، وأن التعبير اللفظي عن الأفكار لا يأتي إلا في مرحلة تالية (Jakobson, Selected writings, 1985, p. 256).

ليس هناك مبرر لنفي إمكان التفكير والإدراك العقلي المباشر للحقائق بشكل سابق للغة أو في غير حاجة مبدئية إليها، وهو ما يتوافق مع ما يمكن أن يستخلص من فكرة الأفكار الفطرية السابقة للتجربة عند ديكرت ومن وافقه من الفلاسفة والمفكرين العقلانيين. ولكن، وبغض النظر عن الرؤية الفلسفية المقابلة التي تعتبر اللغة شرطاً جوهرياً في التفكير وجزءاً لا يتجزأ منه كما نجده عند فيتجنشتاين ومؤيدي النسبية اللغوية من العلماء والفلاسفة الذين ينسبون إلى اللغة مسؤولية تشكيل الفكر، إلى أي مدى يمكن لمثل هذه الطريقة في التفكير أن تستمر؟ وكيف يتهيأ لعقل أن يبني تصوراً فكرياً معقداً عن ثوابت ومتغيرات الكون الفيزيائي بمعزل عن اللغة؟

بحسب شهادة أينشتاين واصفاً هذه الآلية الإبداعية في التفكير التي تولدت من الرغبة في الوصول إلى مفاهيم مترابطة منطقياً في ظل قصور اللغة: علامات معينة وصوراً أكثر أو أقل وضوحاً نوعان من الكيانات النفسية التي يبدو أنها تعمل كعناصر في الفكر في المرحلة السابقة للألفاظ، تتكرر عمداً ويُعاد ترتيبها فتصير مرجعاً شخصياً

للأجهزة الدلالية. (Jakobson, Selected writings, 1985, p. 256). إنها حالة عقلية تستدعي التحقيق والاختبار والسؤال عن مدى موضوعية أينشتاين ودقته في وصف وضعه اللغوي؛ فإن تغيب اللغة اللفظية كلياً من كل تفكير معقد لهو تحدّ بالغ الصعوبة، ويناقض الفكرة التاروينية نفسها فيما تعلّق منها باستحالة الاستمرار طويلاً في التفكير المعقد دون اللغة كاستحالة الاستمرار الطويل في الحساب دون الأرقام والجبر. ويرجّح الباحث أنّ التفكير مهما بلغ من مستوى تجريدي متوسلاً صورا وعلامات غير لفظية، وهو ما ليست متهبّة أسباب نفيه ولا مبررات اعتباره طفرة أينشتاينية، فإنّ هذا التمثّل من التفكير لا يعدم حضور اللغة التي قد يحجب الوعي بها بروز الصّور. وعلى الرغم من أنّ أينشتاين يصرّ على أنّ المفاهيم العلمية يتمّ إنشاؤها بواسطة أفضل العقول في جميع البلدان والأوقات في عزلة العملية الإبداعية عن التوجيه اللفظي، فيبدو أنّ ذلك في الواقع لا يعدم اللفظ بل يعطل أو يعدّل توجيهه.

ج) اللغة والفكر وميلاد النسبية¹² بين الفيزياء وعلم اللغة:

من طرائف الوضعية اللغوية والمعرفية لأينشتاين إقامته مع عائلة عالم اللغة السويسري جوست وينتler Jost Winteler (1846-1929) في مدينة "آراو" (Aarau) السويسرية التي التحق بإحدى مدارسها (Cantonal School) (1895-1896) مراهقاً في عمر السادسة عشر لاستكمال متطلبات تعليمه الثانوي. ولأنّ اللغة تحتلّ من العقل البشري مكانة مركزية كما أسلفنا، فقد أدى التوافق الفطريّ مع الأسئلة الأساسية للمكان المخصّص لها في العقل كما يستنتج جاكوبسون إلى ارتباط روحي عميق بعالم اللغة، أثمر النسبية نظريّة فيزيائيّة طورها أينشتاين رياضياً بعد أن استلهم فكرتها من مبدأ وينتler ومصطلحه الأساس "النسبية الظرفية" (Relativität der Verhältnisse)¹³، في أطروحته¹⁴ التي اتّسمت حسب وصف جاكوبسون بجدّة منهجية ودقة في مقارنة النظام الصوتي للألسن، وتميّزا أساسياً لسماته العرضيّة (accidental features) وخصائصه الجوهرية (essential properties)¹⁵. (Jakobson, Selected writings, 1985, pp. 83, 258). وهو عمل يستهدف حصراً بحسب تصريح وينتler أولئك الذين يملكون القدرة على فهم الشكل اللغوي باعتباره إنجازاً للعقل البشري، يرتبط به في علاقة عميقة وبعيدة المدى، ويتحمّ عليهم تبعاً لذلك إدراك أهمية التحقيق في القوى الكامنة التي تحدّد الحركة المستمرة للشكل اللفظي وتحكم تطوّر اللغة (Wintler, 1876, p. 8)، وهي ذات المهمة التي حددها أينشتاين للفيزيائيين، وهي الوصول من خلال الحدس المرتكز على الفهم المتعاطف للتجربة إلى القوانين الكونية الأولية عن طريق الاستنتاج الخالص (Jakobson, Selected writings, 1985, p. 260).

لم تتوقف علاقة أينشتاين باللغة ويعلم اللغة عند حدود تأثّر بأفكار وينتler، بل إنها انتقلت فيما بعد إلى وضع التأثير، وقد أبرز جاكوبسون كيف كانت المعرفة المبهرة بكتابات أينشتاين رائعة ومثمرة، خصوصاً في أوساط حلقتي موسكو وبراغ، مؤكداً أنّ أولئك الذين كانوا مهتمين باللغة قد تعلّموا تطبيق مبدأ النسبية في العمليات اللغوية تحت تأثير قوّة جذب الحركة التطورية المذهلة للفيزياء الحديثة على وجه الخصوص، حيث كل شيء قائم على العلاقة والتفاعل بين الأجزاء والكل، وظهر ذلك بشكل صريح في أعمال حلقة براغ، التي أشارت إلى المساعي المنهجية لأينشتاين لربط المشاكل المحورية للنسبية والثباتية. (Jakobson, Selected writings, 1985, p. 261).

وقد شارك الفيزيائي نيلز بور انطلاقا من إصراره على الزوابط العميقة بين الفيزياء وعلم اللغة في ندوة مشتركة بمعية جاكوبسون في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا في نهاية الخمسينيات من القرن الماضي لمناقشة "مقتضيات الثبات النسبي" فيما يتعلق بالبحث عن المكونات النهائية للكون المادي والكون اللغوي، وهي التي تعرف في الفيزياء بـ "الكوانت الأولية"، وهو المصطلح الذي انتقل إلى علم اللغة واستخدمه اللغويون في سعيهم إلى تصور الكتلة اللغوية على أنها مادة متقطعة تتكون من كوانتات أولية. هذا فضلا عن ظهور التوافق النسبي بين الفيزياء وعلم اللغة في أعمال اللغويين الأمريكيين إدوارد ساير (1884-1939) تلميذ فرنز بواس¹⁶ وبنجامين لي وورف (1897-1941) تلميذ ساير في توجهها نحو تقدير نسبية شكل الفكر. (Jakobson, Selected writings, 1985, p. 262)

غير أنّ الحديث عن الصلة بين العلمين لا يعني تعالقهما التأثيري المباشر، بل ترجع أكثر أوجه التوافق كما يبدو إلى تطور متقارب ولكن مستقلّ يمكن ملاحظته على سبيل المثال في بحث كليهما في عدد محدود من الحالات عن القوانين العامة، كما في الاكتفاء في التحليل اللغوي بعدد قليل من الحالات الصوتية للكشف عن المهمة الرئيسية للسمات المميزة للأصوات اللغوية، وهي كما يسميها أيششتاين، أفكارا علائقية صارمة، يتم حدسها على أنها تعارضات ثنائية¹⁷. (Jakobson, Selected writings, 1985, p. 262). ويبدو التوافق المستقل مؤشرا على ما يزع الباحث إليه من الاعتقاد بتجانس الموضوعات الكونية في احتكاكما إلى مبدأ تكويني كوني واحد لا تشذ اللغة عنه.

- خاتمة:

- ارتبطت اللغة في الأذهان بما هي أكثر بروزا وتأنقا فيه وهو الأدب شعرا ونثرا وفنا لغويا خالصا ليس له من دونها شكل أو وجود، وألقت العقول في زمن استقلال العلوم والمعارف والفنون اختصاص الأدب بلغته مما ليس للعلم حظ فيه. والواقع أن اللغة هي منظومة حيوية متحركة طيعة التشكيل وسيلة للعيش وللعلم وللفن، بسيطة متنوعة، ودقيقة صارمة، وجميلة شاعرة. تمنح مستخدميها المتنوعين على اختلاف غاياتهم بقدر حاجتهم منها وقدرتهم عليها. ولذلك فهي معطى مشترك للاستخدام العادي والعلمي والفني، وهي في الوقت نفسه موضوع مشترك للنظر. ومن الناظرين من اطمأن لاعتبارها ابتكارا تطوريا طارئا، فهل آلتها التي هي أيضا للتنفس والحياة كذلك مبتكرة؟ خصوصا وأنها على اتصال عصبي مباشر بمنطقة ارتباط في الفص الجبهي من الدماغ مخصصة لإنتاج اللغة، وهذه ترتبط بواسطة حزمة من الألياف العصبية بمنطقة في الفص الصدغي مخصصة لفهم اللغة متصلة بجهاز السمع المهيأ لاستقبال الأصوات. فأي تطور متدرج هذا أو غير متدرج، بطيء أو سريع، وأي انتقاء هذا الذي ينتج في الجسم البشري أجهزة حيوية محددة الوظائف فائقة التصميم؟ ليست اللغة كائنا حيا، ولكنها منتجة بآلة حيوية ووفق عملية حيوية، بما في ذلك شروطها العقلية والانفعالية.

- أظهرت القراءة الاستيعادية أنّ علوم اللغة والأحياء والفيزياء تنتج على نحو مستقل أو بتأثير متبادل مفاهيم متشابهة رغم اختلاف موضوعاتها، كمفهوم النشوء والتطور والنسبية والتكافؤ، وهو توافق نسبي يشير في نظر الباحث إلى احتمال أن تكون اللغة في بنيتها التكوينية مجانسة للسنن الحاكمة للموضوعات الكونية. وعليه يفترض وجود مبدأ تكويني كوني واحد يحكم نشوء الموضوعات والظواهر، بما في ذلك اللغة، وهو مبدأ يظل إلى حد كبير خارج نطاق المعرفة

العلمية الوضعية، مما يجعل المواقف حوله نسبية خاضعة لاختلاف مواقع النظر، وسياقاتها التاريخية، وأطرها المفاهيمية والمنهجية.

- أمكن للقراءة الاستيعادية للمرحلة ما قبل السوسيرية أن تعيد ترتيب الأدوار المعرفية التاريخية بعد التحقق من السبق الزمني لعلم اللغة هينسليغ ويدجوود إلى الشطر الأهم من المفهوم المركزي للسانيات السوسيرية المتعلق باللسان بوصفه نظام علامات، دون زعم باطلاع دو سوسير عليه، ولا قطع بأصالة ابتكار ويدجوود له، وذلك متروك لمزيد من التحقيق. مع احتفاظ دو سوسير بفضل نقل المفهوم إلى مستوى تجريدي أعلى انطلاقا من وجهة نظر استطاعت أن تنفذ إلى الجوهر النفسي للنسق اللساني وتغزله عن الجانبين العارضين الصوتي الفيزيائي والعضوي الفيسيولوجي.
- مبدأ الاعتباطية في اللسانيات السوسيرية وإن كان مرضيا لوجهة النظر العلمية المعاصرة السائدة، ليس هو الحل النهائي والوحيد لتفسير نشأة اللغة واشتغالها، وقد سبق ويدجوود إلى الاحتجاج للمحاكاة مبدأ أساسيا منتجا للغة، نافيا ادعاء محدودية تأثيره وقلة الكلمات المنتجة وفقه وإن طمس التطور التاريخي أثره.
- إن اللغة وإن كانت موضوعا لعلم مستقل هو اللسانيات، ليست ممتعة عن الإفادة من وجهات نظر قبل أو بعد ألسنية، بذات القدر من الأهمية، سواء أكانت من علماء أو فقهاء لغة، أو علماء أحياء، أو فيزيائيين، أو غيرهم.

- قائمة المراجع:

- Britannica. (n.d.). Retrieved from Britannica
: <https://www.britannica.com/science/equivalence-principle>
- Darwin, C. (1871). The Descent of Man and Selection in Relation to Sex (Vol. 1). Cambridge: Cambridge University Press.
- Darwin, C. (1859). The Origin of Species, by means of natural selection, or the preservation of favoured races in the struggle for life. London: John Murray.
- Einstein, A. (1960). "The Common Language of Science", Ideas and Opinions, Based on Mein Weltbild, by Carl Seelig, and other sources (5 ed.). (S. Bargmann, Trans.) New York: Crown Publishers, Inc.
- Farrar, F. W. (1860). An Essay on the Origin of Language, , Based on Modern Researches, and especially on the works of M. Renan. London: John Murray.
- Jakobson, R. (1985). "Einstein and the Science of Language", Selected writings, Contributions to Comparative Mythology. Studies in Linguistics and Philology, 1972-1982 (Vol. 7). (S. Rudy, Ed.) Berlin, New York, Amsterdam: Mouton Publishers.
- Jakobson, R. (1987). Language in Literature. (K. P. Rudy, Ed.) Harvard University Press.

- Lamarck, J. B. (1830). Philosophie Zoologique (Vol. 1). Paris: Dentu.
- Saussure, F. d. (1971). Cours de linguistique generale. Paris: Payot.
- Schleiche., A. (1873). Die darwinsche Theorie und die Sprachwissenschaft. Weimar, Hermann Böhlau: Zweite Auflags.
- Schleicher, A. (1860). Die Deutsche Sprache. Stuttgart: Verlag der J. G Cotta'schen Buchhandlung.
- Wedgood, H. (1866). On The Origin of Language. London: N. TRÜBNER & CO.
- Whitney, W. D. (1875). The Life and Growth of Language. London: Henry S. King & Co.
- Wintler, J. (1876). Die Kerenzer Mundart des Kantons Glarus in Ihren Grundzugen Dargestellt. Leipzig und Heidelberg: C. F. Winter'sche Verlagshandlung.
- سيبي، م. (2014). صندوق داروين الأسود، تحدي الكيمياء الحيوية لنظرية التطور (الإصدار 1). (م. ا. الهيري، المترجمون). مصر: دار الكتاب للنشر والتوزيع.
- دويكير، ل. (2015). فهم دو سوسير وفقا لمخطوطاته: مفاهيم فكرية في تطور اللسانيات (الإصدار 1). (ربما بركة، المترجمون) بيروت، لبنان: المنظمة العربية للترجمة.
- روينز، ه. (1997). موجز تاريخ علم اللغة في الغرب (المجلد 227). (المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، المحرر، و أحمد عوض، المترجمون) الكويت: عالم المعرفة.
- شومسكي، ن. (2017). بنیان اللغة (الإصدار 1). (إبراهيم الكلم، المترجمون) بيروت، لبنان: جداول للنشر والترجمة والتوزيع.
- المسدي، ع.س. (1986). التفكير اللساني في الحضارة العربية (الإصدار 2). تونس: الدار العربية للكتاب.

. الهوامش:

- ¹ - يعني التطور كما حدّاه دارون وكما هو شائع في الوسط العلمي، عملية ظهور الحياة من مادة غير حية، ثم التطوّر كلياً بوسيلة طبيعية. (سيبي، 2014، صفحة 14).
- ² - له في ذلك كتاب منشور سنة 1869 بعنوان: "أرخييل الملايو: أرض إنسان الغاب وطائر الجنة: قصة سفر مع دراسات عن الإنسان والطبيعة":
- The Malay Archipelago: The Land of the Orang-Utan, and the Bird of Paradise: A Narrative of Travel, with Studies of Man and Nature", 1869.
- ³ - يتبنى شلايشر التعريف الشائع للغة باعتبارها التفكير بصوت عالٍ "Sprache ist lautes Denken"؛ أي التعبير الصوتي عن الفكر (Schleicher, 1860, p. 4). "Die Sprache ist der lautliche Ausdruck des Gedankens"

و كان يعتقد أن اللغة كائن حي (Organism) تمر بمراحل نشأة ونمو وتطور وفق قوانين خارجة عن السيطرة البشرية، تنتهي بها إلى الشيخوخة ثم الموت؛ ومن ثم يمكن فهمها تحت مسمى "الحياة"، ما يجعل علم اللغة علما طبيعيا يضطلع بنفس الوظيفة التي تضطلع بها العلوم الطبيعية الأخرى. (Schleiche., 1873, pp. 6-7). وهو ما أفضى إلى تطوير نظام تصنيف للغات شبيه بالتصنيف النباتي، أسفر عن ترتيب اللغات ذات الصلة في شجرة أنساب (Stammbaum). (Schleiche., 1873, p. 14).

⁴ - مؤلف كتاب: "مقالة عن أصل اللغة، بناء على الأبحاث الحديثة، وخاصة أعمال السيد رينان":

- An Essay on the Origin of Language, Based on Modern Researches, and especially on the works of M. Renan, 1860.

⁵ وهذه هي الملاحظة نفسها التي سوف تقود تشومسكي بعد قرن من الزمان إلى الاعتقاد بمبدأ فطرية اللغة والكليات اللغوية والنحو العالمي. وهي، أقصد الفطرية دون سواها، إحدى احتمالين استنجهما ويدجود قبل أن يميل إلى المحاكاة مبدأ مفسرا لنشأة اللغة.

⁶ - يقدم مثالا على ذلك كلمتي (diurnus, giorno)، فدون معرفة هذين الكلمتين الوسيطتين يستحيل لولا الكتابة الشك أن jour يمكن أن تكون مشتقة من dies، وكما سيكون من العبث البحث عن أي آثار للتقليد في وقت لاحق. (Wedgood, 1866, p. 133)

⁷ - يمكن الاطلاع على تفصيلات معضلة النشأة اللغوية، وخصوصا موقف التوقيف والتواضع، في (المسدي، 1986، الصفحات 67-78)، والكتاب كله مخصص للظاهرة اللغوية ومفضل لقضايا نشوئها وعلاقتها بالوجود والاجتماع البشريين.

⁸ - "The intimate connection between the brain, as it is now developed in us, and the faculty of speech, is well shown by those curious cases of brain-disease, in which speech is specially affected, as when the power to remember substantives is lost, while other words can be correctly used." (Darwin, The Descent of Man, 1871, p. 58).

⁹ - لم يقع الباحث على إشارة صريحة من داروين إلى ملاحظات بروكا بشأن أثر أمراض الدماغ على اللغة وخصوصا حالة ليبورغن الشهيرة، ولكنه عثر في كتاب "انحدار الإنسان" على إشارات صريحة كثيرة إلى الملاحظات الأنتروبولوجية المؤثرة لبول بروكا. وانظر على سبيل المثال (Darwin, The Descent of Man, 1871, p. 152).

¹⁰ - انطلق الباحث من تساؤل احتمالي عن إمكانية العثور على وجهات نظر لغوية لأكثر العلماء شهرة في الحقول العلمية الدقيقة خاصة، من منطلق أن المشتغلين بصناعة المعرفة في مختلف الحقول العلمية سيختبرون بوعي الحدود البيانية للألسن الطبيعية في تشكيل المفاهيم والتصورات العلمية. ولم تنهيا للباحث دلائل الجزم إن كان أينشتاين يحكم صورته الأيقونية الفريدة في تاريخ العلم الحديث والمعاصر أسبق في الحضور إلى الذهن أم داروين، غير أن سؤال اللغة وإن انطلق منها فإنه لم يوقف عليها.

¹¹ - عانى أينشتاين تأخرا ويطئا شديدا في اكتساب اللغة، وعجزا عن التحدث حتى سن الثالثة، وافتقارا للطلاقة حتى التاسعة، وفي الصف الأخير من مرحلته الدراسية الابتدائية، وصعوبة في تعلم اللغات الأجنبية وإتقانها استمرت معه طوال حياته. ويبدو أن علاقته باللغة من ناحية اكتسابها قد حددت علاقته بها من ناحية التفكير بها والتفكير بمعزل عنها والتفكير فيها. (Jakobson, 1985, p. 254)

¹² - نظرية النسبية هي إطار أساسي في الفيزياء يشمل النسبية الخاصة والنسبية العامة، يصف كيفية ارتباط المكان والزمان والكتلة والطاقة والجاذبية فيما بينها تحت أطر مرجعية مختلفة.

¹³ - من اللافت أن تتم العملية الإبداعية لإنشتاين في غياب اللغة اللفظية، وأن يبتدي في الوقت نفسه بطريقة حدسية، ويتأثر من عالم اللغة وينتقل إلى "النسبية". هذا لا يعني بالضرورة أن أينشتاين قد استلهم الفكرة كليا من وينتزل، بل لعل الفكرة في شكلها

الحدسي كانت تشغل ذهنه، وكان ينقصه فقط تشكيلها اللغوي الواضح، وهو ما قام به على نحو مستقل جوست وينتذر. وهذا ربما يدعم شيئا ما فرضية استحالة استمرار العملية الإبداعية في شكلها المعقد خارج اللغة.

¹⁴ - كانت قد صدرت سنة 1876. بينما أصدر دو سوسير أول مؤلف له سنة 1871 عن "النظام البدائي للصوائت في اللسان الهندي الأوري" (Memoire sur le system primitif de voyelles dans la langue indo-europeenes).

¹⁵ - ميز وينتذر تميزا متمسقا بين الثوابت invariations والمتغيرات العلائقية في اللغة variations، أي "الخصائص الجوهرية" و"الخصائص العرضية"، ووفقا لنظريته لا يمكن تقييم أصوات الكلام بمعزل عن غيرها، بل فقط من حيث علاقتها بجميع وحدات الصوت الأخرى في اللسان المعني وبالوظائف اللغوية المسندة إليها في هذا التنوع. (Jakobson, 1985, pp. 83, 258)

¹⁶ - من الطريف أنه تلميذ فرنز بواس الذي كان على صلة بأينشتاين وبينهما مراسلات.

¹⁷ - وقد ظهرت في العلمين مجموعة من المفاهيم والمبادئ المتماثلة وثيقة الصلة بالنسبية كبداً التكافؤ (Equivalence principle)، (Jakobson, 1985, p. 263)، وهو قانون أساسي في الفيزياء ينص على أن قوى الجاذبية وقوى القصور الذاتي متشابهة في طبيعتها، وغالبا ما يصعب التمييز بينهما (Britannica). وكذلك نجد المفهوم في علم اللغة، وعلى سبيل المثال عند جاكوبسون في مثل تفسيره للوظيفة الشعرية للغة، باعتباره؛ أي مبدأ التكافؤ علاقة قائمة على تشابه أو تقابل الوحدات اللغوية على محور الاختيار، يتم إسقاطه على محور التأليف:

" The Poetic function projects the principle of equivalence from the axis of selection into the axis of combination". (Jakobson, Language in Literature, 1987, p. 71)